نبذة في تاريخ رسم المصاحف

كانت وزارة المعارف قد عهدت الى المغفور له حفني بك ناصف بتصحيح الاغلاط الاملائية التي وقعت في رسم المصحف بتكرار طبعه ، فقام بمراجعة المصحف وابتدع قواعد خاصة بالاملاء الذي كتب به في خلافة عثمان بن عفان . وقد صحح وفقاً لهذه القواعد نحو مائتي غلطة املائية ، وطبع المصحف الجديد بخلو تاماً من الخطأ

وقد وضع حفني بك كتاباً في قواعد رسم المصحف . ولكنه لم يطبع بعد ، وكتب له مقدمة شائقة سرد فيها تاريخ رسم المصاحف قرأينا ان ننشرها

جاء في حديث عائشة وفاطمة رضي الله عنهما ان جبريل عليه السلام كان يعارض النبيَّ (يقرأ والآخر يقابل عليه) صلى الله عليه وسلم القرآن في كل سنة في شهر رمضان مرة واحدة ، وفي السنة الاخيرة من حياته عارضه مرتين ، فأحسَّ النبي صلى الله عليه وسلم بدنو اجله

وقد كتب القرآن بعد العرضة الاخيرة زيدُ بن ثابت وأبيٌّ بن كعب وأبو الدرداء ومعاذ وغيرهم من اكابر الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين . ولكن الوحي لم ينقطع حتى قبض عليه الصلاة والسلام ، فألحق الكاتبون ما نزل أخيراً بما عندهم

ولما ولي أبو بكر الخلافة ارتدَّ من ارتدَّ من العرب ، وادعى مسيلمة النبوةَ في اليمامة وتبعه بنو حنيفة ، فأرسل أبو بكر رضي الله عنه خالد بن الوليد لقتالهم مع عصابة من المسلمين فاستحرَّ القتل في القراء ومات منهم ٧٠٠ رجل ، فخشي عمر رضي الله عنه أن يستحرَّ القتال في المواطن كلها ويذهب بالباقين من القراء ، فيذهب بذهابهم قرآن كثير ، فأشار على أبي بكر ان يأمر بجمع القرآن كله في صحف لتكون مرجعاً للمسلمين

فأرسل ابو بكر لزيد بن ثابت ، وقال له : إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتتبَّع القرآن لتجمعه قال زيد : فجعلت اتتبَّع القرآن من صدور الرجال ومن الرقاع والاضلاع ومن العسُب (فحرف السعف) حتى جمعته . قال فتفقدت آية كنت أسمعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أجدها عند أحد فوجدتها عند رجل من الانصار : وهي : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر » فألحقتها في سورتها ، ثم فقدت آية اخرى فاستعرضت المهاجرين والانصار أسألهم ، فوجدتها عند خزيمة بن ثابت : وهي : « لقد جاءكم رسول » الى آخر السورة ، فألحقتها في آخر السورة ، ثم عرضته على نفسي عرضة ثالثة فلم أجد فيه شيئاً

ومعنى أنه لم يجد الآية أنه لم يجدها عنده مكتوبة فيما سبق أن كتبه في حياة النبي (ص) مع كونه يحفظها ، « ومعنى وجدها عند الانصاري » أنهُ وجدها مكتوبة لان زيداً كان يهمه أن يطلع على الكتابة لانه كان فيها علائم مخصوصة تدل على أوجه القراءة التي اذن بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقرأ بها وفود القبائل من العرب من فك وادغام وإمالة وتفخيم وإشمام ومد وقصر وتغليظ وترتيق ، قال عليه الصلاة والسلام : ان هذا القرآن انزل على سبعة أحرف فاقرؤا ما تيسر منه . قيل انها لغات قريش وكنانة وأسد وهذيل وبني تميم وضبة وقيس ، وهم الذين انتهت اليهم الفصاحة وسلمت لغاتهم من الدخل . وبذلك تم جمع القرآن كله في الصحف مشتملاً على الاحرف السبعة . وبقيت تلك الصحف عند أبي بكر حتى مات ، ثم كانت عند عمر حتى مات ، ثم كانت عند ابنته حفصة زوج النبي

وفي خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه ، قدم عليه حُذيفة بن اليمان فزعاً ، وكان قد سار مع جيش المسلمين للقتال على فرج أرمينية ، وقال : يا أمير المؤمنين إني سمعت الناس اختلفوا في القراءة حتى والله إني لأخشى أن يصيبهم ما أصاب اليهود والنصارى من الاختلاف ، فما كنت صانعاً — إذا قيل هذه قراءة فلان وقراءة فلان كما سمع أهل الكتاب — فاصنعه الآن. وكان قد بلغ الخليفة عثمان ان المعلمين في المسجد يختلفون في القراءة ويقول أحدهم قراءتي خير من قراءتك واني رويت قراءتي عن فلان عن النبي (ص) ويتمادون الى حد المقاتلة ولا يسلم أحدهم بقراءة الآخر ، فجمع عثمان الناس وكانوا يومئذٍ اثني عشر الفاً وقال لهم : بلغني أن بعضهم يقول قراءتي خير من قراءتك ، وهذا يكاد يكون كفراً . قالوا فما ترى؟ قال ، ارى أن يجمع الناس على مصحف واحد فلا يكون فيه فرقة واختلاف . قالوا فنعم ما رأيت

فأرسل من فوره الى حفصة ان ارسلي الينا بالصحف فننسخها في المصاحف ثم نردها اليك . فأرسلت اليه الصحف . وأرسل هو الى زيد بن ثابت وسعيد بن العاصي وعبدالله ابن الزبير وعبد الرحمن بن هشام ، وقال لهم انسخوا هذه الصحف في مصحف واحد ، وقال للنفر القرشيين : إن اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فاكتبوه على لسان قريش فانما نزل بلسانهم فصدعوا بأمر الخليفة واخرجوا للناس اربعة مصاحف مكتوبة كلها بخط زيد واملاء القرشيين وليس فيها أي علامة من العلامات التي كانت في الصحف قبل ، لتدل على الاحرف السبعة ، فأرسل منها مصحفاً الى الكوفة وآخر الى البصرة وآخر الى الشام وأمسك عند نفسه واحداً ، وأمر بتحريق كل الصحف والمصاحف التي كانت من قبل . وقد أثر عن ذلك الصحابة رضوان الله عليهم حتى قال علي كرم الله وجهه : « لو وليتُ لفعلتُ في المصحف ، الذي فعل عثمان »

وقد امر بعد ذلك بكتابة مصحف لأهل المدينة وآخر لاهل مكة وآخر لاهل البحرين وآخر لاهل اليمن

وقد نقل الجعبري عن أبي علي ، أن عثمان أمر زيد بن ثابت ان يُقرئه بالمدني ، وبعث عبدالله بن السائب مع المكي والمغيرة بن شهاب مع الشامي وأبا عبدالرحمن السُلمي مع الكوفي وعامر بن عبد قيس مع البصري ، ولم يعرفه من بعث مع اليمني ولا البحراني ، ولهذا انحصر الائمة الخمسة في السبعة الأمصار

قال الجعبري: والاعتماد في نقل القرآن على الحفّاظ . ولهذا انقدم الى اقطار الاسلام للتعليم ، وجعل هذه المصاحف اصولاً توافي حرصاً على الانفاذ ، ومن ثمّ ارسل الى كل اقليم المصحف الموافق لقراءة قارئه في الاكثر

ويفهم من كلام الجعبري ان بين المصاحف الستة شيئاً من الاختلاف في الرسم وهو صحيح . ولم يكن غرض عثمان رضي الله عنهُ منع الناس من تراءة القراءات المروية بالتواتر وحملهم على الاقتصار على لغة قريش وتضييق ما وسعهُ الله على عباده من الاخذ لنبيّه بأن يقرئهم على الاحرف السبعة تسهيلاً لهم ورحمة بهم ، بل غرضهُ الضرب على أيدي من يتشبث بما وصل اليهِ ويحجر على الناس القراءة بما وصل اليهم ويقول قراءتي صواب وقراءة غيري خطأ ووضع حد ثابت لقبول الروايات . فكل رواية لا تنطبق على مرسوم المصاحف العثمانية يضرب بها عرض الحائط ولا يجوز القراءة بها ، ولذلك قال ابو محمد مكي : لقد سقط العمل بالقراءات التي تخالف خط المصحف فكأنها منسوخة بالاجماع على خط مصاحف عثمان . اهـ . ولو كان عثمان أمر باتباع حرف واحد لما جاز لنا ان نخالفه ، فان عرفنا عينه أخذنا بهِ وان لم نعرفهُ اقتضت قاعدة اجتماع الحظر والاباحة عدم جواز القراءة بأي حرف كان إذ لا حرف الاّ وهو محتمل أن يكون غير مراده ، فهو محتمل للمنع

وما ظهرت هذه المصاحف الاّ وقد تقاطر الناس عليها لنسخها كما هي من غير تغيير في شيء حتى الحروف المخالفة لاصول الرسم القياسي

وكانت الكتابة في ذلك العصر خلواً من نقط الاعجام ومن الشكل بأي طريقة كانت ، فكانت مصاحف عثمان كذلك ، وكان المرجع في القراءة الى المقرئين الذين انفذوا الى الامصار ومن تلقى عنهم

واول من وضع الشكل أبو الاسود الدؤلي بطلب زياد بن سمية عامل معاوية ، فوضعهُ نقطاً حمراً فوق الحروف وتحتها وعلى يمينها

واول من وضع نقط الاعجام نصر بن عاصم الليثي مستعيناً باستاذه يحيى بن يعمر العدواني بطلب الحجاج عامل عبد الملك بن مروان

واول من غير النقط الحمر الى الحروف الصغيرة الخليل بن احمد الفراهيدي بعد انقراض دولة الامويين

ومن هذا تعلم أن مصاحف عثمان كانت صالحة لان تقرأ على أوجه شتى حسب ما يحتمله رسمها ، فكانت الرواية هي المخصصة لبعض هذه الاوجه دون بعض . وبسبب تعدد الروايات تعددت القراءات

وأجمع المسلمون من الصحابة والتابعين وعلماء الامصار على ان كل رواية متواترة صحيحة السند ، يُقرأ بها متى كان لها وجه في العربية وكان رسم اي مصحف من المصاحف العثمانية يحتملها

ومن هذا يعلم ان المحافظة على رسوم المصاحف العثمانية امر واجب لمعرفة القراءة المقبولة والمردودة لان هذه الرسوم صارت اصلاً من اصول القراءة ودعامة من دعائم الدين الاسلامي

وفي هذه المحافظة ايضاً احتياط شديد لبقاء القرآن على اصله لفظاً وكتابة فلا يفتح فيه باب الاستحسان لانهُ اذا فتح الاستحسان في الرسم فقد لايلبث ان يفتح في اللفظ، ويتطرق اليه التغيير والتبديل ، فسدوا هذا الباب ابقاء كل شيء على اصله حتى ما هو مخالف لمألوف الرسم المعتاد . وقد سئل مالك هل يكتب المصحف على ما احدثه الناس من الهجاء فقال لا. إلاّ على الكيتبة الاولى

وما ذهب اليهِ مالك ، ذهب اليه جميع الائمة المجتهدين وانعقد عليه اجماع علماء المسلمين في مشارق الارض ومغاربها ، واسبح من الامور التي فرغ منها وانتهى الامر فيها

ولا نعلم ان احداً من العلماء تحكك في هذا الامر الا ابن خلدون في القرن الثامن وبعض رجال الازهر في القرن الرابع عشر . وليس احد منهما اماماً مجتهداً ، والحمد لله

قال الاول ما معناه ان الصحابة لم تكن استحكمت فيهم اجادة صناعة الخط فأخطئوا في مواضع من رسم القرآن وتابعهم على هذا الخطأ من بعدهم تبركاً بأصحاب رسول الله وتكلفوا لعملهم هذا تعليلات وحكماً لم تخطر في بال الصحابة

وقال الآخرون : لو كتبنا القرآن بخطنا المستعمل الآن دون تلك المخالفة خرجنا من العهدة وقمنا بالامر احسن القيام كن كلف شيئاً ففعل خيراً منه، لانك قد علمت ان الخط الحاضر احسن مما كان عليه من الطريقة القديمة التي كانت في زمن الصحابة . اهـ

وقد غفلوا جميعاً عن السببين الجوهريين اللذين لاجلهما انعقد الاجماع ، وهما ان الرسم القديم واجب المعرفة لقبول ما يقبل من روايات القرآن ورفض ما يرفض منها وسدّ باب الاستحسان مبالغة في التحفظ على القرآن ، فهم قد حفظوا شيئاً وغابت عنهم اشياء

ولا يبعد اذا سلم كلام هؤلاء العلماء ان يذهب غيرهم الى استحسان كتب المصاحف بالحروف اللاتينية وآخرون الى اختصاره وآخرون الى ارجاعه للغة العامية ليعم نفعه الى غير ذلك من الرقاعات والخرقة . وماذا بعد الحق الاّ الضلال ؟